مجلة أبوليوس
المجلد 08 العدد 02 – جويلية 2021
الصفحات: 132- 143

بناء الأفضية الذهنية في المعجم الذهني من النحو التوليدي إلى النحو العرفاني (مقاربة لسانية عصبية)

Building Cognitive Spaces in the Lexicon Perspective from Generative Grammar to Cognitive Grammar (Neurolinguistic approach)

د. فريدة رمضاني*
جامعة علي لونيسي – البليدة 02/ الجزائر
tadaouli@gmail.com

تاريخ الاستلام: 10/ 05/ 2020 تاريخ القبول: 29/ 06/ 2020 تاريخ النشر: 31/ 08/ 2020

ملخص البحث:

اختلفت النظريات والاتجاهات اللسانية في النظر إلى المعجم الذهني من حيث سيروراته المعرفية وأبعاده الهندسية اللغوية المتمثلة في الأفضية الذهنية حيث ظهرت العديد من الأطروحات والنماذج التحليلية لهذا النوع من القضايا و تعد النظرية التوليدية أحد هذه النماذج التي ركزت على التآلف التركيبي في المستوى التصوري للمعجم الذهني لكن لم تكن أطروحات النحو التوليدي كافية في تبيان خصائص و آليات اشتغال الأفضية الذهنية في المعجم الذهني فظهرت نماذج أخرى أكثر رصانة وصلابة من الأولى و هي ما يعرف بالنحو العرفاني.

نرمي من خلال هذا البحث معرفة المجال الذي يجمع الأفضية الذهنية بالمعجم الذهني و ذلك بالعودة للمنظور اللساني المتمثل في النحو التوليدي "لتشومسكي" Chomsky نظرا لاهتمامه بتحليل علاقة التوليد الدلالي بالمعجم و كذا النحو العرفاني الذي حاول تجاوز الأحكام اللسانية لأنها غير كافية لتفسير التداخل العجيب بين الاثنين و نقصد بذلك الأفضية الذهنية والمعجم الذهني الذي بات مدار الأبحاث اللسانية العصبية المعاصرة.

الكلمات المفتاحية: الأفضية الذهنية؛ المعجم الذهني؛ النحو التوليدي؛ النحو العرفاني؛ اللسانيات العصبية.

Abstract:

Theories and linguistic trends have divergent views regarding the mental lexicon in terms of its cognitive process and its geometric and linguistic dimensions which are the mental space. Many theses and analytical models for this type of issue have appeared among which the generative theory which focused on syntax at the conceptual level of the mental lexicon, but generative grammar theses were not sufficient to demonstrate the mental spaces' characteristics and their mechanisms of functioning in the mental lexicon. Other more solid models than the first one have emerged which were known as cognitive grammar.

This research aims to know the domain that relates mental spaces with the mental lexicon by reviewing the linguistic perspective in Chomsky's generative grammar given his interest in the analysis of the generative semantics to the lexicon, and the cognitive grammar which tried to transcend the linguistic rules because they are not sufficient to explain the strange overlap between them, we mean by this the mental spaces and the mental lexicon that became the area of the contemporary neurolinguistic studies.

Keywords: Cognitive spaces, mental lexicon, generative grammar, cognitive grammar, neurolinguistics.

* المؤلف المراسل

مقدمة:

لا يخلو الحديث عن المعجم الذهني من الإحالة على الأفضية الذهنية المشكلة له؛ و يعزى هذا الارتباط إلى كون هذين المفهومين عبارة عن كيانين ذهنيين يصعب تفكيكهما و الفصل بينهما نظرا للتفاعل الكبير الحاصل داخلهما، و نتيجة لذلك فإن الباحثين -من جميع التخصصات- يعكفون على فك شفرات هذا التعالق الذي يطرح العديد من التساؤلات عن طبيعته و سيروراته في الذهن البشري، و عن تشكيله لدلالات اللغة و هذا ما يطلق عليه الباحثون اللغويون حاليا بالفضاء الدلالي و هو مفهوم يستقي معالمه من العلاقة الناشئة بين الأفضية الذهنية و المعجم الذهني.

و هذا ما تسعى إليه هذه الورقة البحثية التي ترمي إلى الغوص في ثنايا النحوين التوليدي والعرفاني للحصول على إجابات لهذه الإشكاليات: هل الأفضية الذهنية المشكلة للمعجم الذهني ذات طبيعة لسانية أم عرفانية؟ و ما نوع القيود التي تتحكم في اشتغال المعجم الذهني؟ أنحوية هذه القيود أم عرفانية؟ وما هي الأبعاد الهندسية للأفضية الذهنية في المعجم الذهني من المنظورين التوليدي والعرفاني؟

1-مفهوم الأفضية الذهنية:

لقد طرحت الكثير من النظريات اللسانية العرفانية المعاصرة قضية الأفضية الذهنية و زوايا النظر إليها من حيث اختلاف المضامين و محاولة تأسيس مفهوم قريب من الواقع الإدراكي للغة و من بين هذه النظريات نجد نظرية الأفضية الذهنية التي أسسها "فوكونياي"Fauconnier الذي يرى أن:" الأفضية الذهنية...أبنية جزئية تتكاثر عندما نفكر ونتكلم، تسمح بأن يتوزع خطابنا وأبنية معارفنا توزعا جزئيا مفصلا"[1] و هو منظور يقتصر في عمومه على عملية انقسام الفضاء الذهني و تكوثره و هي مسألة متعلقة بالخطاب و كيفية بنائه و هو أمر متوقف على معارف المتكلمين و هذا ما يعزز القول بأن الفضاء الذهني: "هو جملة العناصر و المعلومات المنظمة المتعلقة بها تشمل العناصر جميع المفاهيم ما تعلق منها بالمعتقدات و الأفكار و الأحاسيس والمشاعر و ما تعلق منها بالأشياء في الكون فهو بنية عرفنية تبنى فيها المجالات و تنتظم و تترابط بأنواع من الترابطات ما بين المجالات"[2] و هذا يعني أن المعجم الذهني لا يتشكل بعيدا عن الواقع الخارجي الذي يسبك أفضيتنا الذهنية و يعزز تماسكها الداخلي.

إن الفضاء الذهني في الحقيقة لا يعدو أن يكون جزءا من العملية الإدراكية التي تتم داخل الذهن ولذلك فهي تطابق:" مطابقة كلية أو جزئية حال الأشياء في الكون فيكون التطابق بين واحد من عناصره و واحد من الأشياء في الواقع، كما يكون بين خصائص ذلك العنصر في الفضاء الذهني وخصائص ذلك الشيء في الواقع"[3] و هذا ما يمثل جل خطاباتنا التي يتطابق فيها التصور الذهني الذي يحصل داخل الدماغ بما هو واقع في العالم الخارجي الذي نعيش فيه، و هذا لا يمنع البتة أن يكون الفضاء الذهني

متخيلا و هذا من قبيل ما يحصل لنا عند قراءتنا القصص و الحكايات و الروايات غير الواقعية و هي:" أفضية ذهنية قائمة بذاتها في الذهن تتأسس بها الحكاية مضمونا عرفنيا متماسكا متناسقا منتظما"[4] وبناء على هذا الاعتبار فإن الأفضية الذهنية ترتبط بجميع العمليات و الأنشطة التي يقوم بها الفرد في حياته في جميع المجالات.

2-المعجم الذهني:

يعد المعجم الذهني[5] أحد المكونات الرئيسية المشكلة للغة نظرا لما يملكه من الخصائص الإفرادية والمعجمية التي لا تنأى عن الجانب الدلالي في كل لغة:" و إن كان المعجم في كل اللغات عبارة عن أزواج من الخصائص الدلالية الصوتية التي تميز مداخله المتغايرة، فإن الكثير من الوحدات المعجمية المستعملة ليست إلا تنوعات أو تحقيقات مختلفة لوحدات معجمية أخرى تحصلنا عليها بفعل استخدام تقنيات التجميع، أو الإلحاق، أو الإلصاق، أو النحت...و في كل مراحل الاشتغال على وحداتنا المعجمية هذه، نقوم بتنشيط مسارات ذهنية متنوعة ومعقدة، تتفاعل بموجبها المعارف اللسانية والاقتضاءات المعرفية البالغة الضبط و التعقيد في الآن نفسه،"[6] و بهذا يتعين علينا الاهتمام بمعرفة آليات اشتغاله و تحديد مساراته التي تتداخل فيها جملة من الوظائف العصبية و العمليات اللغوية والإجراءات الذهنية، و سنحاول في هذا البحث استثمار كل هذه العلاقات لتوضيح القواعد الهندسية للوحدات المعجمية الذهنية التي تتم على مستوى الدماغ و للبرهنة على التفاعلات الحاصلة فيه سنلجأ للسانيات العصبية التي تزودنا بالمعلومات الدقيقة عن كيفية اشتغال اللغة في المخ:" فمنذ أن أصبح المخ البشري موضوع بحث دقيق من طرف علوم الأعصاب، و بيولوجيا الجزئيات، تأكدت معلومات توفر هذا العضو المركزي الهام على حوالي مائة مليار من الخلايا العصبية، بالإضافة إلى عدد مماثل من الخلايا المساعدة المسماة بالخلايا الغلية cellules gliales حيث يتحقق التفاعل الترابطي بينها باعتماد خلايا وسيطة تصل إلى حوالي مليون من المليارت."[7]

و إذا كانت المعطيات التي تزودنا بها اللسانيات العصبية على قدر كبير من الأهمية فإن معالجة اللغة و تفسير جزئياتها سيغدو يسيرا بالنسبة للباحثين حيث يقتضي عليهم التفكير في سبل تقريب المسافات من حيث البحث عن هذه المسائل المعقدة التي لا يمكن بأي حال من الأحوال الاستغناء فيها عن التكامل المعرفي بين التخصصات لاسيما و أن اللغة تتداخل مع الكثير من العلوم، و لمقاربة فرضيات بناء الأفضية الذهنية في المعجم الذهني علينا أن نطرق كل الأبواب اللسانية التي التفتت لهذا النوع من الدراسات، طبعا دون أن نغفل عن البدائل المعاصرة التي تجاوبت مع جوهر اللغة العرفاني و قامت بتعديلات معاصرة قادرة على فتح آفاق جديدة بخصوص البحث اللساني في مجال اللسانيات العصبية.

3-المعجم الذهني في النحو التوليدي والنحو العرفاني:

إنه من غير الممكن الخوض في الحديث عن المعجم الذهني دون الجمع بين النحو التوليدي والنحو العرفاني حيث يترتب عزل أحدهما عن الآخر الحصول على نتائج مبتورة و غير دقيقة و عليه فمن الضروري استغلال المعطيات اللسانية في البحث عن الوظائف العرفانية:" و على الرغم من مصداقية هذه المقاربة، على الأقل من الناحية الإكلينيكية، فإنها لا

تصبح مقبولة عندما نركز على المسارات المعرفية الأساسية المحددة للمهارات و الأهليات اللسانية، ذلك أن اللغة التي تحتل موقعا مركزيا في المعرفية، مرتبطة ارتباطا وثيقا بالوظائف المعرفية الأولية (من مثل: الانتباه، وذاكرة العمل)، و المسارات الذهنية المتطورة (مثل: الذاكرة)، و اعتبارا لذلك، فإن إنجازا ناقصا، أو سلوكا خاصا، أو خطأ مخصوصا سيكون- بالضرورة- من طبيعة لغوية."[8]

إذن سنحاول في هذا العنصر الاعتماد على الرؤية اللسانية العصبية للمعجم الذهني في الدراسات اللسانية المتمثلة في النحو التوليدي الذي عرف منعطفات جريئة في المسار الدلالي و قد بدت بوادر هذا الانعطاف جلية بعد ظهور علم النفس المعرفي حيث غير مجرى الأحداث اللسانية رأسا على عقب؛ وبهذا أصبحت مسألة المعجم الذهني تستحوذ تقريبا على جل الأضواء في الدراسات العرفانية.

3-1-المعجم الذهني في النحو التوليدي:

لم يكن النموذج التوليدي بعيدا عن طرح قضية المعجم الذهني، حيث انتبه "تشومسكي" إلى الدور المركزي الذي يحتله المعجم بالموازاة مع النحو، بل نستطيع القول إنه سعى إلى:" تحديد العوامل الكامنة وراء إمكانيات التعبير (اللامحدودة) في اللغة: فكل شخص ينتج ما لا نهاية من الجمل و يفهمها و إن لم يسمعها من قبل في حياته، فهو يستبطن طريقة في التوليف بين عدد محدود من العناصر المحفوظة في الذاكرة، تلك هي الملكة اللغوية، و الملكة قسمان محفوظان في الذهن هما المعجم الذهني و النحو الذهني، فالأول منهما عدد من الوحدات و الثاني عدد محدود من مبادئ التوليف تمثل النظام الحوسبي،"[9] و بهذا يكون النحو الذهني هو من يتحكم في العلائق المعجمية التي يمكن معالجتها و حوسبتها آليا من خلال المقاربة الحاسوبية العصبية لكنها تبقى مجرد افتراضات و لا يزال البحث قائما للوصول إلى استجلاء ميكانيزمات اللغة الذهنية.

إن تعقيد الجهاز الذهني للغة دفع "تشومسكي" للبحث عن علاقة اللغة بالعقل فاتحا بذلك آفاقا جديدة في اللسانيات، و هذا بفضل المنوال التوليدي الذي ابتكره حيث توصل فيه إلى تأسيس مفهوم التوليد Generation و المقصود به هو الاستعمال اللامتناهي للجمل، و المعجم الذهني هو بالأساس توليد للوحدات المعجمية في الذهن إن:" العقل البشري يخزن صورا معقولة؛ فبالنسبة إلى كل نظرية معقولة يجري العقل نوعا من الحسابات.. لذلك يجب أن تتضمن كل نظرية فكر عنصرا من التمثيلات و القواعد الذهنية،"[10] التي تشكل بالتدريج معجما دلاليا خاصا والفضل في ذلك يعود إلى البنية التركيبية التي تعتبر خزانا للوحدات المعجمية.

علاوة على ذلك، فإن تصور المعجم الذهني في النحو التوليدي يختلف عن النماذج اللسانية الأخرى حيث ينماز عنها بخاصية التعالق بين المستوى الدلالي والمستوى التركيبي، و قد بدا ذلك جليا في البرنامج الأدنوي:" الذي اعتبر أحدث مقاربة في النظرية التوليدية حيث يمثل مرحلة جد متطورة في هذه النظرية، و يبنى هذا البرنامج على الفرضية الفطرية العامة التي مفادها أن الإنسان يملك قدرة لغوية، وهذه القدرة مكون(قالب) من قوالب الذهن(الدماغ) البشري المخصصة للغة"[11] و عليه من دوافع اهتمام المنوال التوليدي بالنحو هي تلك القدرة التي يملكها العقل البشري و المتمثلة في إمكانية توليد الوحدات المعجمية من خلال التوليد التركيبي و هذا ما ذهب إليه "تشومسكي" في برنامجه حيث اعتبره:" نسقا معرفيا يخزن المعلومات و يعالجها و يضم معلومات عن الصوت و معلومات عن المعنى، و هذا التصور

الأدنوي للغة جعل من النحو نظاما حاسوبيا يربط الدلالة بالتركيب،"[12] و ما يلفت النظر في البرنامج الأدنوي هو الاهتمام بالمعجم و النحو معا.

يتضح من خلال مضامين البرنامج الأدنوي في النحو التوليدي أن بناء المعجم الذهني مرتبط إلى حد بعيد بما يحصل داخل الدماغ و وفق هذا التصور يفترض "تشومسكي" أن في الذهن جهازا اصطلح عليه جهاز اكتساب اللغة Language Acquisition Device(LAD) يعمل على تكوين المعجم الذهني و قد أشار إليه في الخطاطة التالية:[13]

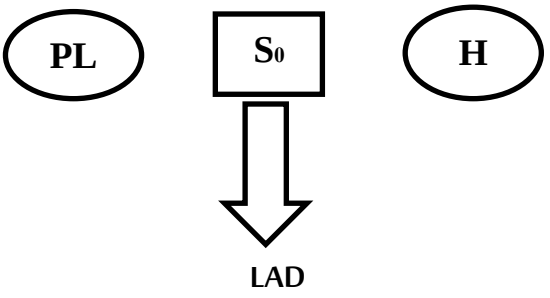

الشكل1: خطاطة جهاز اكتساب اللغة

يمثل الرمز PDL البيانات اللغوية الأولية Primary Linguistic Data و هي بمثابة المعلومات التي يستقيها الطفل من المحيط الخارجي، أما الرمز S0 فيشير إلى الحالة الذهنية للطفل حين يولد State أي قبل أن يكتسب المعجم الذهني، و بالنسبة للرمز LAD فهو كما سبق و أن ذكرنا جهاز اكتساب اللغة عند الطفل، و رمز H يمثل الفرضية Hypothesis حيث يصوغ الطفل فرضية للبيانات التي سبق و أن سمعها من محيطه.

نستنتج مما سبق أن الطفل يؤسس معجمه الذهني عن طريق الخبرة و التجربة التي مر بها في مرحلة الطفولة المبكرة و هي تقريبا الفكرة التي أشار إليها المتخصصون في اللسانيات العصبية:" فقد أثبتت الدراسات أثر اكتساب اللغة الأولى في تنظيم الدماغ، وأن التعرض للتجربة يحدد نمو الأنساق اللغوية الواردة فيه، حيث يلاحظ نوع من النمو أثناء اكتساب اللغة الأم، و هذه التغييرات تختلف عن تلك التي تحدث في مرحلة النضج، و الاختبارات التي أجريت على أطفال تتراوح أعمارهم ما بين 13 و 20 شهرا أظهرت أنهم في الشهر 13 من عمرهم بدا أثر فهمهم للكلمات على المناطق الأمامية و الخلفية للدماغين الأيمن والأيسر، أما في الشهر 20 فقد لوحظ هذا الأثر على المناطق الصدغية و الجدارية لنصف الدماغ الأيسر."[14]

إن الإقرار بدور التجربة و الخبرة أثناء اكتساب اللغة عند الطفل يؤكد لنا أن عملية بناء المعجم وتشكله هي الأخرى تنشأ عن التجربة اللغوية:" فالأمر إذن في عمليات تكوين اللبنات الأولية للمعجم الذهني خاضع للبرنامج البيوجيني داخل المشغلات النيورونية للغة البشرية، و هو قانون عام في الطبيعة تخضع له كل الظواهر الحية، و اللغة مركز لهذه الظواهر،"[15] ولهذا فإن الأطفال الذين لا يتعرضون إلى التجارب اللغوية أي لا يتفاعلون مع المحيط الخارجي هم أكثر عرضة للاضطرابات اللغوية كتأخر اللغة أو تأخر الكلام أو غيرها من الأعراض الأخرى.

و ننوه هنا إلى أن الجهاز النحوي يكون مرتبطا ارتباطا وثيقا بالمعجم حيث يرى "فريديريك ميشال" و"هيلين نيفيل" Fredericck Michell ,Helen Neville:" أن التأخر في معالجة المعلومة النحوية في ارتباطها بالعمر يختلف عن التأخر في معالجة المعجم والدلالة و أثر النمو العصبي عليهما، فالأنساق النحوية تستجيب بصورة كبيرة للتجربة اللغوية والعمر، خلافا للأنساق المعجمية و الدلالية التي تكون قابليتها ضعيفة،"[16] و لذلك نجد "تشومسكي"

يلح في النحو التوليدي على فاعلية النحو في تكوين المعجم الذهني متأثرا في ذلك بالعلوم العصبية مبرزا من خلالها السيرورة البيولوجية للعناصر المعجمية حيث فسر كيفية اندماجها في:" (الحروف و الأسماء والأفعال) مع بعض مكونة مركبات أو جملا، بحيث إن كل عنصر معجمي يحتوي على زوجين من السمات كل زوج ينجذب إلى زوجه؛ بمعنى أن كل عنصر معجمي لا يؤدي وظيفته النحوية حتى يتزاوج مع مكمله، ويحصل من تزاوجهما تولد مركبات؛ فعلى سبيل المثال: الحرف "إلى"، هذا الحرف يحتوي على سمة uN؛ التي ترمز إلى كون الحرف يحتاج إلى سمة من نوع الاسم N؛ أي يحتاج إلى اسم و لا يحتاج إلى فعلV، ومن ثم، لا يتزاوج إلا مع الأسماء،"[17] و هكذا يتكون المعجم الذهني وفق قواعد بيولوجية ونورولوجية.

و نخلص إلى أنه رغم الجهود التي بذلها "تشومسكي" في إطار النحو التوليدي الذي عرف قفزات نوعية فيما يخص دراسة اللغة؛ و مع أن التصورات التي قدمها بخصوص المعجم الذهني كانت الأبرز في التوجهات اللسانية الحديثة و المعاصرة، إلا أنها لم تكن كافية في إظهار الأنساق الداخلية للنظام اللساني داخل الدماغ، فبالإضافة إلى التوليد في المعجم نجد هناك عناصر أساسية أخرى لم يتطرق إليها في البرنامج الأدنوي وحتى النماذج السابقة، وهذا ما يحاول النحو العرفاني الكشف عنه.

2-3-المعجم الذهني في النحو العرفاني:

لقد نادت الكثير من الأصوات[18] إلى ضرورة التخلي عن النحو التوليدي الذي سيطر على المشهد العلمي العالمي و هذا من خلال تبني منوال نحوي جديد يعنى باللغة في أبعادها المختلفة و قد تم اقتراح البديل ألا وهو النحو العرفاني[19] Cognitive Grammar الذي سرعان ما بدأت ملامحه بالظهور في إطار ما يطلق عليه اللسانيات العرفانية و هي مجال يشتغل على المسارات الذهنية و كل ما يحيط بالإدراك و اللغة والذهن.

و بالنظر إلى السؤال المهم الذي طرحه النحو العرفاني بشأن المعجم الذهني و المتمثل في ماهية وكيفية البناء فإننا ننطلق في تحليلنا له من مقاربتين نظريتين اثنتين هما:

3-2-1-المعجم الذهني ذو بعد عصبي ذهني:

و هو موجود على مستوى البنية الداخلية للذهن هي مقاربة عصبية أنطولوجية و هي:" مجموعة واسعة من التمثيلات التي يمتلكها المتكلم لكلمات لغته، و تتنوع هذه التمثيلات بين: تمثيل صوتي، إلى تمثيل خطي إملائي Graphological، فتمثيل مورفولوجي، ثم تمثيل نحوي، و انتهاء بالتمثيل الدلالي."[20]

3-2-2-المعجم الذهني ذو بعد لساني:

و هو موجود على المستوى التواصلي اللساني والمراد به:" مجموع الوحدات الدنيا التي تدل على معنى ما فيما يمتلكه الفرد من مخزونه، سواء وظفها في أثناء عملية التوليد (المعجم التعبيري)، أو في أثناء التحليل(معجم التلقي)."[21]

و تأسيسا على هذا الرأي فإن نموذج النحو العرفاني يعتمد في معرفة الباراديم المعجمي الذهني على الابيستيمولوجيا العصبية و اللسانية في الوقت ذاته؛ ونحن نطرح هذه القضية الجوهرية عن كيفية الاشتغال الذهني للمعجم من المنظور النحوي العرفاني و جدنا أن هناك دائرة تكاملية تجمع بين الاثنين الأولى ذهنية و الثانية مادية فمنذ أن ظهرت الدراسات اللسانية العصبية أصبح اقتران اللغة

بالذهن أمرا لا مناص منه حيث:" يمكننا القول إن الهدف الأمثل من دراسة اللغة في علاقتها بالمخ البشري هو محاولة اكتشاف الجينوم اللغوي Language Genome والاستفادة من نتائج ذلك في وضع آليات تحليلية جديدة للمستويات اللغوية الخاصة بالمعنى: النحوية و الدلالية، تتغيا وعيا أكبر بالتواصل اللساني الإنساني في مرحلتي الإنشاء اللغوي العقلي داخل المخ، و التلفظ Enunciation المؤدي إلى انتقال اللغة عبر شفرات Codes من المتكلم إلى المتلقي (المعجم الذهني Mental Lexicon)، و إدراكه و فهمه للمعنى."[22]

لقد أدرك النحو العرفاني أن النحو لم يعد مجرد أبنية صورية وحسب بل بات جهازا عرفانيا و هذا ما أكده "لانقاكر" Langacker إذ يقول إنه ليس توليديا و ليس بنائيا، كما أنه ليس عددا من الخوارزمات التي تعطى من مداخل و مخارج الأقوال المقبولة، ويضيف أن صورنة النحو آلية خوارزمية تقودنا إلى افتراضات لا أساس لها في طبيعة البنية اللغوية[23] وعليه للوصول إلى تصور دقيق عن أهمية النحو في تكوين و بناء المعجم الذهني لابد أن نبحث عن بدائل مقبولة علميا و هذا ما تبنته الدراسات النورولوجية.

إن النحو يعد مكونا مركزيا في المعجم الذهني إذ على أساسه تتركب الوحدات اللغوية في الذهن، لكن هذا لا يعني أنه يعمل وحده بل يشتغل بالموازاة مع الأجهزة الأخرى؛ فلم تعد:" اللغة مجرد مجموعة من الأنشطة فحسب، بل هي أجزاء من المعرفة التي تعتمد على بنية كلية Structure-Dependent Piece of Information؛ فهناك المستوى التركيبي، والصوتي، و الدلالي...إلخ، توازيها في المخ عمليات عرفانية كبرى من الانتاج والتحليل...بما يجعل الدماغ حاوية كبرى لمجموعة من التمايزات اللغوية التي لا يمكن أن تركن إلى نظرة معيارية مقننة، و كل محطة تشغيل تشمل مجموعة من المراكز و الأجهزة و الأدوات التي يستخدمها الدماغ لتحليل اللغة و تركيبها،"[24] و بناء عليه يمكننا تفسير ميكانيزمات المعالجة في المعجم الذهني عبر سيرورة العمليات العرفانية وفق مركزية التركيب كما هي واضحة في هذا الشكل:

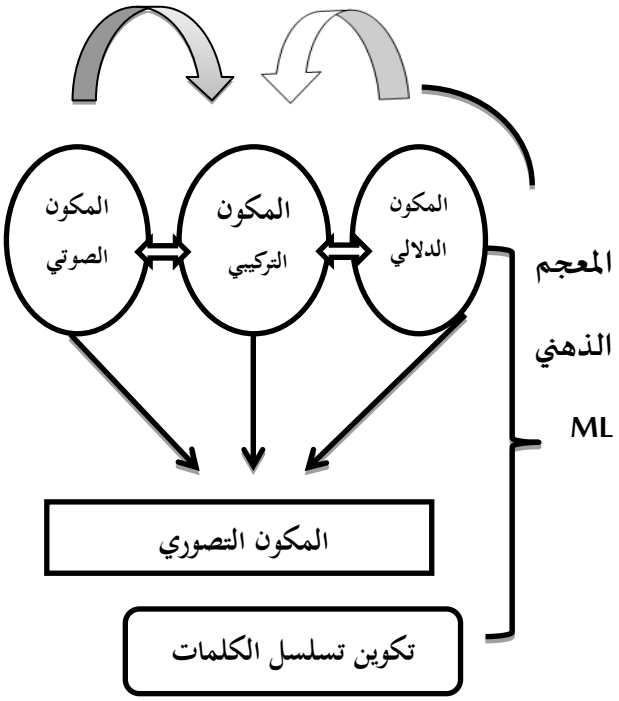

الشكل2: مركزية التركيب في المعجم الذهني

إن الحقيقة العرفانية التي تعنينا هنا هي نظرة النحو العرفاني للمعجم الذهني الذي تحكمه جملة من العلاقات بين الوحدات التي يشكل فيها التركيب المركز الأساسي للتفاعلات داخل المعجم، و لأن اللغة لا تكتمل ماهيتها و مكوناتها إلا بفهم المعاني فإن النحو العرفاني جعل المكون الدلالي و المكون الصوتي أو بالأحرى الفونولوجي بالإضافة إلى المكون التصوري عناصر محورية في عملية البناء بل هي ترتبط بها ارتباطا مخصوصا؛ و بناء على ما تقدم فإن المعجم

الذهني يقوم على تمثيل العمليات العرفانية من خلال شبكة متناسقة و منسجمة تتفاعل فيها مجموعة من الفضاءات الذهنية التي تبين لنا عمق الرؤية المعرفية للمعجم الذهني.

4- الأفضية الذهنية في المعجم الذهني:

كثيرة هي الأعمال التي توضح كيف يشتغل المعجم الذهني و كيف يتشكل أثناء اكتساب اللغة وكلها تشير إلى أنه عبارة عن جهاز متكامل تتشارك فيه جملة من العناصر و المكونات، لكن قليلة هي الدراسات التي تلتفت للدور المحوري الذي تقوم به الأفضية الذهنية في المعجم؛ الأمر الذي حفزنا للبحث عن طبيعتها و عن أبعادها و عن القيود المسهمة في بنائها.

و قد تبلورت فكرة الأفضية الذهنية في النسق الدلالي أكثر منها في النسق التركيبي و هذا بحكم أن الإنسان يخزن في ذاكرته كل ما له دلالة عن أحواله أو عواطفه أو الأشياء التي تهيمن على مجاله الذهني مما هو حاصل في عالمه الخارجي فيعمل على تفسيره وتقييمه و إصدار الأحكام عليه إذ يملك:" آلية متفردة مبدعة هي التخييل؛ بحيث يستطيع أن يفسر و يبين التمثيلات الذهنية بصورة فائقة الدقة، فيما يعرف بآلية بناء النماذج في الدماغ البشري."[25]

هذه النماذج تمثل فضاءات بالغة التعقيد إنها دقيقة الضوابط فهي تشكل في مجموعها نظاما ذهنيا خالصا، و عندما قلنا إن الدلالة هي أكثر هيمنة في توليد الفضاءات الذهنية لم نعن بذلك أن التركيب أصبح هامشيا فاستنادا لبعض الفرضيات القائمة في هذا الشأن فإن فضاءاتنا الذهنية لا تنشأ إلا :"من خلال التفاعل بين التركيب + الدلالة، و هو تفاعل مؤسس على المنطقية المخزنة عن المفهوم في الدماغ (المعجم + التركيب)، و هذا الاتساع هو ما يولد لنا أنحاء Grammars ذات قدر معقول من الاشتراك بين اللغات المتمايزة الباراميترات كما هو معلوم، و تستمر ديمومة السيرورة اللغوية بالتفاعل بين الروافد الثلاثة المكونة للمفاهيم: التركيب + الدلالة + المعجم،"[26] وعليه فإن الفضاء الذهني منمذج وفق ميكانزمات متعددة تقترن في مجموعها بجهاز واحد هو المعجم الذهني الذي يتحدد بواسطة شبكة من العلاقات اللسانية و العرفانية.

5- بناء الأفضية الذهنية في المعجم الذهني بين النحو التوليدي و النحو العرفاني:

ننطلق للحديث عن بناء الأفضية الذهنية في المعجم الذهني من اتجاهين اثنين الأول لساني والثاني عرفاني؛ ذلك أن الفضاء الذي ينشط ضمن هذين الإطارين المركزيين متداخل إلى حد ما، و نظرا لهذا التداخل سنحاول الإلمام بالعناصر المشتركة بينهما منزلين كل اتجاه منزلته من البحث و هما كما سبق وأن ذكرنا النحو التوليدي و النحو العرفاني.

5-1--بناء الأفضية الذهنية في المعجم من منظور النحو التوليدي:

معلوم أن الأفضية الذهنية تنشأ في المعجم الذهني من التوليد الدلالي و هذا طبقا لمقولات النحو التوليدي الذي سار على نهجه الكثير من اللسانيين المساهمين في تأسيس النظرية التوليدية أمثال "كاتز" و "فودور" و غيرهم إدراكا منهم بقيمة الدلالة في بناء الفضاء الذهني؛ و الواقع أن التوليد للأفضية الذهنية لا يتم بشكل صرف لأن التركيب له دور جوهري في بناء التصورات و المفاهيم التي تشكل أساس الفضاء الذهني، و هو موقف علمي تشهد له العلوم الإدراكية في اللسانيات العصبية.

إن ما يكتسي أهمية في بناء الفضاء الذهني للمعجم من منظور النحو التوليدي هو تلك الفرضيات التي تقول إن المفاهيم و الفضاءات

الدلالية تستبطن الذهن بل أكثر من ذلك هي:" الوحدة الفعالة للذاكرة والمعجم الذهني و منظومة التصورات ولغة الدماغ، وصورة العالم كلها و الكم من المعرفة، ومعظم المفاهيم تعبر عنها اللغة؛ فالمفاهيم عبارة عن كيانات ذهنية نموذجية مخزونة في دماغ الإنسان، و الأساس العصبي للمفهوم يتضمن تفعيل مجموعات نيورونية كثيرة منفردة موزعة على مناطق مختلفة من الدماغ، لكنها في الوقت نفسه تشكل طاقما واحدا و يتوصل إلى جميع هذه المناطق في وقت واحد من خلال التنشيط عن طريق كلمة أو علامة أخرى."[27]

إن ما هو أساسي بالنسبة لنا في المعجم الذهني هو رصد كيفية بناء فضاءاته الذهنية في النحو التوليدي وما يقترحه بخصوص ميكانيزمات و آليات اشتغاله في الذهن، و لنتأكد من افتراضاتنا استندنا إلى الرأي الذي يقول بأن الفضاء الذهني هو وليد البنية التصورية وعلى هذا الأساس تنتظم بنية النحو في الدلالة التصورية و تتموقع فيه، و من هذا المنطلق أضحى الوقوف على أوليات التصورات الفضائية الماثلة في المعجم الذهني يمثل أهمية بالغة في معرفة كيفية بنائها.

و قد برهن النحو التوليدي في صورته العقلية أن ما يحصل داخل الدماغ ليس اعتباطيا و لذلك يتعين علينا إعمال الفهم لاستكشافه و تحيين الأدوات لتحليله و هي الفكرة التي نادت بها اللسانيات العصبية:" و قد اتجه العالم اللغوي الأمريكي "تشومسكي" Chomsky في السنوات الأخيرة إلى دراسة اللغة من خلال هذا المنظور العقلي العصبي، و طور نظريته اللغوية بشكل هائل، و ألقى عشرات المحاضرات حول تلك القضية، خاصة المعجم الذهني."[28]

إن منظور النحو التوليدي لبناء الأفضية الذهنية في المعجم الذهني مرتبط بطبيعة القيود التي تتحكم في هندسته و النسيج العصبي الذي يحوي تصوراته:" ولعل فيما طرحه البرنامج الأدنى التومشكي (Manimalist) توجيها مهما: إذ يقوم العلم -عموما- بتغطية أكبر قدر من الوقائع و التجارب من خلال استنتاجات منطقية مرتبطة بعدد قليل من الافتراضات و المسلمات...إلخ فالتقنية الصورية ليست مقصودة لذاتها في النحو التوليدي، بل في قدرتها على إمداد المحلل اللساني بالوسائل الصورية الكفيلة باختزال تعقيد أدوات وصف اللغات الطبيعية و تنوعها إلى مبادئ أولية ذات كفاية تفسيرية...بموجب مبادئ وقيود."[29]

إنها القيود التركيبية التي تنتظم وفقها الأفضية الذهنية و تشكل في النهاية بناء هندسيا داخل المعجم الذهني الذي تعالج فيه المعلومات بطريقة بيولوجية ونورولوجية و يتم ذلك بصفة آلية أوتوماتيكية حيث تتفاعل من خلاله المكونات فيما بينها ممتثلة لجملة من القيود اللسانية التي تعرف بالقيود النحوية مع أن هذا القيد لا يكفي لعملية البناء بل هناك قيود أخرى أكثر قوة و التي يطلق عليها القيود العرفانية.

2-5--بناء الأفضية الذهنية في المعجم من منظور النحو العرفاني:

بما أن الأفضية الذهنية عبارة عن عمليات نورولوجية فإن ذلك يرشحها لأن تكون ذات بنية عرفانية في تأسيس المعجم الذهني و هو المنوال الذي انطلق منه النحو العرفاني في منظوره لعملية بناء الفضاء داخل المعجم؛ و لمعرفة حقيقة ذلك سنقوم بتتبع ما جاءت به النظرية العرفانية في هذا الإطار.

لعل القضايا الأساسية التي انطلق منها النحو العرفاني هي مسألة الأفضية الذهنية التي تستعير إشكالية بنائها من العلوم العصبية التي:" تخلص إلى

أن هناك عددا من مناطق الدماغ المستقلة، يختص كل منها بمظهر بصري معين؛ مثل الحجم و اللون والحركة والعلاقات الفضائية....إلخ، تتفاعل فيما بينها عبر وجاهات محددة Interfaces، و لا توجد منطقة يتشكل فيها دفعة واحدة التمثيل التام للحقل البصري، و هذا يوافق هندسة التوازي في اللغة المرتبطة بمبادئ التوزيعية؛ حيث تتوزع الجملة أو المركب على عدد من البنى التي تتواصل فيما بينها عن طريق مكونات وجاهية، و حتى يمكن لنسق دلالي معين أن يتأثر بالإدراك يجب أن يكون هناك وجاه يربط بين البنية التصورية/الدلالية و الأنساق الإدراكية؛ حيث يوجد العالم (البناء التصوري الذي يملكه المدرك عن العالم الفيزيائي) منظما في صورة أشياء ثلاثية الأبعاد تملأ الفضاء."[30]

لقد أكدت الدراسات العرفانية المعاصرة أن الذهن مرتبط بأبنية هندسية تتناسق فيها كل المكونات الوجاهية و المقصود بها الأوجه المتعددة للأفضية الذهنية التي تخزن في شكل معلومات مشفرة يتم معالجتها في الذاكرة حيث:" تخزن الخبرة وتكيف وتعالج للاستدعاء و التعامل مع تجدد المواقف مستقبلا...من ثم ترسل إلى الحصين[31] للمعالجة و التخزين...و من ضمن هذه المعلومات المدخلات اللغوية المعجمية"[32] التي لها دور أساسي في المعجم الذهني.

إذن يمكن القول إن بناء الأفضية الذهنية في المعجم الذهني هي بالأساس تتعلق يالقيود العرفانية التي تمثل مستوى من مستويات البناء للفضاء حيث تتكون المعلومات المستقاة من المحيط الخارجي سواء كانت سمعية أو بصرية أو شمية ....و تعمل على تمثيلها في المعجم الداخلي و هو ما يذهب إليه النحو العرفاني الذي يعتبر اللغة جزءا لا يتجزأ من القدرات العرفانية و التي يبدو أن النحو لا يتجرد منها.

خاتمة:

و قد توصلنا من خلال هذا البحث إلى مجموعة من النتائج و هي تتمثل فيما يأتي:

- يرتبط المعجم الذهني ارتباطا مركزيا بالوظائف العرفانية التي تتعلق بدورها بالمعطيات اللسانية وعليه فإن الأفضية الذهنية المشكلة له هي ذات طبيعة لسانية وعرفانية في الوقت ذاته.
- يمثل المعجم أساس التوليد في النحو التوليدي فهو يشكل خزانا من الوحدات الإفرادية التي يتحكم فيها التوليد التركيبي الخاضع إلى قيود الصوت و قيود المعنى.
- بناء الأفضية في المعجم الذهني قائم على ما يحصل في الدماغ من معالجة للمعلومات الصوتية والدلالية.
- يشتغل المعجم الذهني في منظور النحو العرفاني من خلال البنية الكلية للمعلومة التي تحمل في طياتها كل المستويات اللغوية وهي خاضعة إلى العمليات الذهنية المتعددة التي تتم في المخ.
- المعجم الذهني ذو أبعاد هندسية متناسقة فيما بينها و هي تتشكل من خلال استخدام الآليات الذهنية التي تتفاعل فيما بينها لتصنع لنا مشهد اللغة بكل فروعها.
- الأفضية الذهنية تقترن بالمعجم الذهني الذي تتبلور فيه الأنساق الدلالية أكثر من الأنساق التركيبية.
- بناء المعجم الذهني يحصل انطلاقا من العمليات العرفانية التي تعمل على خلق فضاءات ذهنية داخل الدماغ.

و من بين التوصيات التي خرجنا بها من هذا البحث نذكر ضرورة الاهتمام بالمعجم الذهني

والأفضية الذهنية المشكلة له لخدمة اللغة العربية في بعدها الحاسوبي ذلك أن المعجم البشري هو أساس المحاكاة الآلية، مع إلزامية النظر في آليات بناء المعجم من المنظور اللساني العصبي الحاسوبي.

الهوامش والإحالات:

[1]-رونالد لانقاكر،(2018)، مدخل في النحو العرفني، تر: الأزهر الزناد، دار كريسترا سيناترا،ط1، تونس، ص 91.

[2]-الأزهر الزناد،(2011)، النص و الخطاب: مباحث لسانية عرفنية، دار محمد علي،ط1، تونس، ص 206.

[3]-المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[4]-المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[5]-المعجم الذهني هو عبارة عن نظام دقيق من المعلومات المخزنة في المخ حيث تترسخ كل الوحدات اللغوية في الذاكرة الطويلة المدى.

[6]- مصطفى بوعناني، المعجم الذهني في اللسانيات المعرفية: مكوناته، أبعاد انتظامه، و مسارات النفاذ إليه، مجلة أبحاث معرفية، منشورات مختبر العلوم المعرفية، المغرب، العدد 1،2012، ص 23.

[7]-المرجع نفسه، ص 16.

[8]-المرجع نفسه، ص24.

[9]-الأزهر الزناد،(1431هـ-2010م) نظريات لسانية-عرفنية، دار محمد علي،ط1، تونس، ص 50-51.

[10]-Chomsky Noam,(1980), Rules and representations, Columbia University Press, New York, p 17.

[11]-عبد السلام عيساوي،(2018)، الدلالة بين النظامي والعرفاني، الدار التونسية للكتاب،ط1، تونس، ص 58.

[12]-المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[13]- عبد الرحمان محمد طعمة،(1438هـ-2017م)، البناء العصبي للغة: دراسة بيولوجية في إطار اللسانيات العرفانية العصبية، دار كنوز المعرفة، دار كنوز المعرفة،ط1، الأردن، ص 306-307.

[14]-رشيدة العلوي كمال،(2016)، كيف يكتسب الطفل أنساق لغته؟، أفريقيا الشرق، المغرب، ص 133-134.

[15]-عبد الرحمان محمد طعمة، البناء العصبي للغة: دراسة بيولوجية في إطار اللسانيات العرفانية العصبية، ص 307.

[16]-رشيدة العلوي كمال، كيف يكتسب الطفل أنساق لغته؟، ص 133.

[17]-عبد الرحمان محمد طعمة، البناء العصبي للغة: دراسة بيولوجية في إطار اللسانيات العرفانية العصبية، ص 308.

[18]- من بين هذه الأصوات نذكر لانقاكر و جاكندوف...

[19]-النحو العرفاني هو مجال جديد ظهر في السبعينيات من القرن الماضي مع مؤسسه رونالد لانقاكر، و هو علم يدرس الكيانات اللغوية الرمزية الموجودة في اللغة.

[20]-عبد الرحمان محمد طعمة و آخرون،(1440هـ-2019م) دراسات في اللسانيات العرفانية: الذهن و اللغة والواقع، دار وجوه،ط1، المملكة العربية السعودية، ص 25.

[21]-المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[22]-عبد الرحمان محمد طعمة، التطور اللغوي من منظور اللسانيات العصبية: قراءة بينية معاصرة لبعض القضايا الأولية، مجلة رسالة المشرق، مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة، مصر، العدد 30، 2015، ص 514.

[23]-الأزهر الزناد، نظريات لسانية-عرفنية، ص 115.

[24]-عبد الرحمان محمد طعمة و آخرون، دراسات في اللسانيات العرفانية: الذهن و اللغة و الواقع، ص 36.

[25]-عبد الرحمان طعمة، (1440هـ-2019م) البناء الذهني للمفاهيم: بحث في تكامل علوم اللسان و آليات العرفان، دار كنوز المعرفة، ط1،الأردن، ص 72.

[26]-المرجع نفسه، ص 78.

[27]-المرجع نفسه، الصفحة، ص 96.

[28]-عبد الرحمان محمد طعمة، البناء العصبي للغة: دراسة بيولوجية تطورية في إطار اللسانيات العرفانية العصبية، ص 45.

[29]-عبد الرحمان محمد طعمة و آخرون، دراسات في اللسانيات العرفانية: الذهن و اللغة و الواقع، ص 36.

[30]-عبد الرحمان محمد طعمة، البناء العصبي للغة : دراسة بيولوجية تطورية في إطار اللسانيات العرفانية العصبية، ص 162-163.

[31]-الحصين يدعى بالإنجليزية Hippocampus هو جزء هام من الدماغ هو شبيه بحصان البحر، يقوم بوظيفة أساسية في الذاكرة إذ تلفه يؤدي إلى مرض الزهايمر عند الإنسان.

[32]-المرجع نفسه، ص 168.

قائمة المصادر والمراجع

1-الأزهر الزناد،(1431هـ-2010م) نظريات لسانية-عرفنية، دار محمد علي،ط1، تونس.

2-الأزهر الزناد،(2011)، النص و الخطاب: مباحث لسانية عرفنية، دار محمد علي،ط1، تونس.

3-رشيدة العلوي كمال،(2016)، كيف يكتسب الطفل أنساق لغته؟، أفريقيا الشرق، المغرب.

4-رونالد لانقاكر،(2018)، مدخل في النحو العرفني، تر: الأزهر الزناد، دار كريستر سيناترا،ط1، تونس.

5-عبد الرحمان محمد طعمة،(1438هـ-2017م)، البناء العصبي للغة: دراسة بيولوجية في إطار اللسانيات العرفانية العصبية، دار كنوز المعرفة، دار كنوز المعرفة،ط1، الأردن.

6-عبد الرحمان محمد طعمة و آخرون،(1440هـ-2019م) دراسات في اللسانيات العرفانية: الذهن و اللغة والواقع، دار وجوه،ط1، المملكة العربية السعودية.

7-عبد الرحمان طعمة، (1440هـ-2019م) البناء الذهني للمفاهيم: بحث في تكامل علوم اللسان و آليات العرفان، دار كنوز المعرفة، ط1،الأردن، ص 72.

8-عبد السلام عيساوي،(2018)، الدلالة بين النظامي والعرفاني، الدار التونسية للكتاب،ط1، تونس.

9-Chomsky Noam,(1980), Rules and representations, Columbia University Press, New York.